محمود شلتوت
الأستاذ الأكبر
شيخ الجامع الأزهر

الإسلام
والوجود الدولي للمسلمين

نوفمبر ١٩٥٨
سلسلة الثقافة الإسلامية
٣

سلسلة الثقافة الإسلامية

* تصدر عشرة أعداد فى السنة
* لا تصدر فى : يوليو وأغسطس
* ثمن العـدد : ٥ قروش
* الاشتراك السنوى :

٥٠ قرشا فى مصر

٦٠ « فى البلاد العربية

٧٥ « فى الخارج

* للمشتركين امتياز خاص

تصـدر عن

المكتب الفنى للنشر

ص . ب ١٤٨٣ . القاهرة

المشرف المسئول الأستاذ

محمد عبد الله السمان

المراسلات والتعامل باسم المشرف المسئول

مطبعة دار الجهاد

١٤ شارع الجمهورية

هـذه السلسلة ترحب

* ترحب بكل بحث اسلامى يتمشى مع أهدافها ومستواها ، ومن الكتاب فى شتى البلاد ، لتقوم بنشره ، أو تتعهد برده إذا لم يتفق مع اتجاهاتها ومستواها . .
* كما ترحب بكل نقد موجه إليها من القراء الأعزاء ، من حيث الشكل والموضوع .
* فغايتنا وغايتهم أن نصل بهذه السلسلة الاسلامية إلى الكمال الذى ننشده . .

والله الموفق

العـــــــدد الثالث

هذا هو العدد الثالث من سلسلة الثقافة الإسلامية ، نقدمه إلى القراء عن الإسلام : والوجود الدولى للمسلمين :

أما الكاتب الجليل فهو فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .. ومحاولة التعريف بأستاذنا يعتبر من الحشو الذى لا داعى له ، فحسبه أنه عالم يعتز بعلمه ، وتعتز الأوساط الإسلامية بعلمه معه ، فى كل مكان ، وحسبه بعد ذلك أنه خير من يمثل العالم الدينى فى آرائه الناضجة ، وعقله الكبير ، وقدرته على صيانة الإسلام من الجهل والابتداع ، والتزمت والجمود .

ولعل من أطيب الصدف أن يعين أستاذنا الأكبر ـ ونحن نطبع هذا العدد ـ شيخاً للأزهر ، فكان هذا فألا طيباً للسلسلة ، ومظهر تقدير للشيخ ومكانته .

وأما موضوع العدد ، فهو من الموضوعات الاسلامية التى ينبع من معينها كثير من المعانى الحية ، التى تربط المسلمين بماضيهم وحاضرهم ، وتضىء لهم الطريق إلى مستقبل زاهر .

إننا حريصون على أن نكون عند حسن ظن إخواننا بنا ، وقد عاهدناهم على أن نقدم لهم كتباً لهم مكانتهم ، وموضوعات لها أهميتها ، ولعلنا فى هذا العدد بتقديمنا أستاذنا الأكبر الشيخ محمود شلتوت فى موضوع : الاسلام والوجود الدولى للمسلمين .. نكون قد واصلنا الوفاء بالعهد ..

والله الموفق ؟

محمد عبد الله السمان



* لقد كان للمسلمين باعتبارهم جماعة ، أحداث هى عناصر قوية فى بناء الوجود الدولى لهم ، وكان شأنهم فى تذكرها ، شأن كل مجتمع بشرى يتحسس مواضع الضعف فى سيره فيتقيها ، وعوامل القوة فينميها ..

* كانت الهجرة مبـــدأ الوجود الدولى للمسلمين . الذين لم يكونوا قبلها إلا أفراداً مضطهدين مبعثرين . صار لهم بها وحدة ، لها شعارها الخاص ، ونظامها الخاص ، وهدفها الخاص ..

* إن المبادىء .. متى تركزت وآمنت بها القلوب وامتلأت بها النفوس ، كانت لدى أصحابها أعز من نفوسهم وأموالهم .. ومن كل ما يملكون ..

* إن صاحب العقيدة العالمية ، والمبادىء الإنسانية العامة ، لا يقف بجهوده فى سبيل عقيدته أو مبدئه فى أماكن محدودة ، وإنما يسمو بعقيدته ومبدئه عن التقيد بالجنسيات والأقاليم ، والعالم كله ميدان لعمله ، فإذا ما نبا به مكان تحول إلى غيره ، حيث يجد التربة الخصبة للإنبات والإثمار ..

محمود شلتوت

موضوعات البحث

—

- أحداث . . وذكريات
- المؤسس الأول
- أساس البناء
- صقل . . وإعداد
- نقطة تحول
- ميلاد دولة
- التجربة الأولى
- مبادىء . . وقيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الاسلام شريعة أنزلت على محمد - صلوات الله عليه - لتقيم بناء عالميا إنسانيا ، يسهم فى مد البشرية . بإشعاعات تضىء لها الطريق إلى الخير والحق والجمال .

ومحمد - صلوات الله وسلامه عليه - هو المؤسس الأول لهذا البناء ، بتوجيه من الله عز وجل ، وقد أقامه بيديه على أساس من كتاب الله ، وهو المصدر الأول للتشريع السماوى .

وقد واجه هذا البناء الإسلامى فى طور تكوينه كثير من العواصف ، كما مرت بمؤسسه ألوان من الإرهاق نتيجة للمؤامرات التى حيكت فى الظلام ، والخطط التى رسمت فى وضح النهار للإتيان على البناء قبل أن يتكامل ، والقضاء على مؤسسه قبل أن يؤدى واجبه . وكانت حادثة الإسراء والمعراج ، كرحلة روحية لصقل نفسه وروحه وإعداده الإعداد القوى ، ليواصل تشييد البناء حتى يتكامل ويستقر .

كما كانت مصدر خير للمسلمين ، حيث فرضت فيها الصلاة عليهم ، شعارا على تكوينهم الجماعى ، كجماعة منظمة .

وكانت حادثة الهجرة ، كنقطة تحول فى تاريخ هذا البناء ، ليقم فوق الأرض الجديدة - يثرب - دولة . ذات منهج ونظام وهدف .

ولم يكد يشمخ البناء فى يثرب ، حتى تعرض لتجربة قاسية ، تمثلت فى موقعة بدر ، فاجتاز التجربة القاسية ليثبت للمسلمين وجودهم ، ولتتحطم على أسواره قوى الشر والطغيان .

وبعد بضع سنوات كانت كلها كفاحا وتجارب ، استطاع الإسلام أن يكتب صفحات من الاستقرار الكامل لبنائه ، والوجود الدولى للمسلمين ، فقد تم فتح مكة ،وألقى الطغاة آخر سلاح فى أيديهم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . ولم يصبح من السهولة بعدئذ ، أن تنال قوى الشر والطغيان شيئاً من هذا البناء .

ولحق - المؤسس الأول - صلوات الله عليه - بربه ، بعد أن تكامل البناء الإسلامى ، وبعد أن ترك للمسلمين من المقدسات ما يهب لهم أسعد حياة لو أنهم التزموا الجادة ، وترك للبشرية قاطبة ، من المثل والقيم والمبادىء ،مايرتفع بالإنسانية إلى أسمى درجات السمو ، لو أنها اعتنقتها.

لحق المؤسس الأول بربه ، بعد أن أقام للاسلام دولة ، ترهب صولتها ، وأسس للمسلمين وجوداً يحسب له ألف حساب .

لحق المؤسس الأول بربه ، وهو مطمئن إلى أنه قد أدى الرسالة كما يجب أن تؤدى ، وأجرى مراسيم الشريعة الناضجة . كما يجب أن تجرى ، لتأخذ بيد المسلمين إلى العزة والكرامة، ولتصبح لهم بعد ذلك ذكريات لأحداث إسلامية ضخام ، ستظل معهم إلى الأبد منابع لأسمى المعانى وأعظم القيم والمثل ، يحتفون بها ويحتفلون ، بمثابة أعياد تفرح فيها النفوس ، وتبتهج القلوب ، وتنتعش الأرواح .. ؟

مصر الجديدة

محمود شلتوت

تمهيد

أحداث.. وذكريات

إن لكل مجتمع فيما سلخ من حياة ، أحداثا كان لها فى قوته أو ضعفه ، فى علمه أو جهله ، فى نظامه أو فوضاه ، فى استقراره أو اضطرابه ، فى أمنه أو خوفه . كان لها فى كل ذلك أو بعضه أثر بارز ينعم المجتمع بخيره إن كان خيرا ، ويشقى بشره إن كان شرا . وإن هذه الأحداث التى يسجلها التاريخ لكل مجتمع ، مرآة صادقة ، تنظر فيها الأجيال المتعاقبة ، فتعرف أحداث الخير وأسبابها وأحداث الشر وعواملها ، فتسلك بالأولى سبيل الخير والرشاد ، وتبعد بالثانية عن مهاوى الردى والضلال . ومن هنا استقر فى ضمير المجتمعات البشرية التطلع إلى ماضيها ، واستحضار أحداثها وتقليب النظر فى أسبابها ونتائجها لتمهد لنفسها سبل السير فى حياتها المقبلة ، على ضوء ما عرفت من أحداث الماضى وأسبابها ونتائجها .

وقد كان للمسلمين باعتبارهم جماعة من الجماعات ، أحداث هى عناصر قوية فى بناء الوجود الدولى لهم. أحداث مليئة بالعظات والعبر، وكان شأنهم فى تذكرها واستحضارها من سجل الماضى ، شأن كل مجتمع بشرى يتحسس مواضع الضعف فى سيره فيتقيها ، وعوامل القوة والتقدم فينميها .

وقد لفت الله فى كتابه الكريم أنظارهم إلى هذا الشأن الطبيعى للمجتمعات ، وأخذ يقص عليهم كثيرا من أنباء السابقين ، صالحين ومفسدين ، ويقول :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الظالمين ..

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . .

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ..

وهكذا يملأ القرآن بلفت الأنظار والتذكير بحوادث الأولين . ثم يأمر النبى بتذكير قومه ويشير إلى ثماره الطيبة ونفعه العظيم « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » ويأخذ فى هذا الشأن حتى يجعل القرآن كله ذكرى تحيى فى نفس الانسان عوامل الإيمان التى أماتتها لديه ، شهوات الهوى والطغيان ، أو عصبية الآباء والأجداد : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى » « وإنه لتذكرة للمتقين » .

ثم لا يقف عند هذا الحد من توجيه النفوس إلى الذكريات ، ذكريات الأحداث التى كان الزمن مسرحها ، والبناء الاسلامى ملتقاها ، وذكريات المعانى التى كانت النفوس البشرية صحائفها ، بل عرض فى كثير من آياته إلى تذكير المسلمين - وهم فى المرحلة الثانية للدعوة -

بأحداث المرحلة الأولى فذكرهم بحادث الهجرة :

« واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ..

وذكرهم بحادث التآخى بينهم :

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ..

وذكرهم بحادث تمالؤ الأعداء على اغتيال الرسول صلوات الله عليه :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ..

بل لقد ذكرهم وهم فى المرحلة الثانية بأحداثها القريبة ، ذكرهم بحادث الهزيمة التى وقعت لهم فى موقعة أحد وأسبابها :

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ..

وذكرهم بنعم الله عليهم فى بدر لما صبروا واتقوا ، فكان النصر حليفهم :

« إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ..

« إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ..

« إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام .

وهكذا ، ذكريات النعم ، وذكريات النقم ، وذكريات أيام النصر وعوامله ، وأيام الهزيمة وأسبابها .

• • •

هذا وقد تأخذ بعض الذكريات صبغة دينية ، فيشرع فى أيامها من العبادة ومظاهر المودة والمحبة والفرح والسرور ، ما لا يشرع فى غيرها ، وهى عندئذ تأخذ فى الاسلام اسما خاصا ، يوحى الغرض المقصود منها وهو اسم « الأعياد » . وبذلك كان العيد فى الوضع الاسلامى فرحا وذكرى ، ومن هنا كانت ذكريات الاسلام الأولى نوعين ، نوع هو ذكريات اجتماعية قومية ، ليس فيها تشريع دينى خاص ، ولا ترتبط بنص دينى معين ، وللمسلمين فى هذا النوع أن يختاروا من أحداثهم البعيدة أو القريبة ما يرون أنه جدير بالذكرى . فيحددوا لها ما يختارون من الميقات الزمنى ، يذكرون الناس فيه بعوامل تلك الأحداث ونتائجها ، ويكون فى أيدى الجيل الحاضر مصباحا من الماضى يسترشدون به فى مستقبلهم . ومن ذلك ما اتخذه المسلمون فى عهودهم الأخيرة من ذكريات أحداثهم ، ذكرى الهجرة الأولى . وذكرى ميلاد الرسول .

أما النوع الثانى ، فهو ذكريات أيضا ، ولكنها اقترنت بشئون تعبدية حددت فيها الكيفيات والمظاهر ، كما حدد لها الزمن فى الزمنى ، والمكان فى المكانى ، وهذا النوع ليس محلا لتصرف الناس ، فزمنه وعبادته ومظاهره ، هى هى كما حددها الشارع . ولا يصح أن يقاس عليها غيرها من الذكريات ويخلع عليه خصائصها الدينية .

وإذا كانت الذكريات على وجه عام من شئون المجتمعات البشرية، فإن الأعياد وهى لا تخرج عن دائرة الذكريات ، سنة فطرية أيضا ، عرفها الناس سبيلا لإظهار الفرح والسرور ، كما عرفوا الذكريات سبيلا للعظة والاعتبار منذ أن وجد الاجتماع وعرف كل مجتمع تاريخه وأحداثه ، وبحكم هذه السنة الفطرية ، كان لكل أمة أيام تظهر فيها زينتها ، وتعلن سرورها ، وتتبادل فيها آيات المودة والمحبة ، وتسرى عن نفسها ما يصيبها من مشاق الحياة .

وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار حينما دخل المدينة يلعبون فى يومين ، ورثوا اتخاذهما عيدا عن الجاهلية . وقد كان من شأن الاسلام فيما يجد من عادات وتقاليد أن ينكر فاسدها ، ويقر صالحها ويعدل منحرفها .

ومن هنا أقر النبي صلى الله عليه وسلم أصل الفكرة ، ولكنه عدلها بإلغاء يومى الجاهلية ، وعين لهم يومين آخرين ، قد ارتبط بهما فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ البشرية عامة ، ما جعلهما غرة فى جبين الدهر كله، هما : يوم الفطر ويوم الأضحى .

صفحات مشرقات فى تاريخ المسلمين ، لابد لهم من مطالعتها ، ولابد لهم أن يفتحوا عيونهم على سناها ، فيسلكوا سبيل المستقبل على هداها ، وصدق الله : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

نعم ، حفظ التاريخ للمسلمين أحداثا كبارا وذكريات غاليات ، وقد فرقت على العام تفريقا ، وجاءت فيه متلاحقة متتابعة ، لا يكاد يمر وقت يمكن أن تنسى فيه السابقة حتى تأتى اللاحقة ، فتعيد الذكرى وتنبه الوعى ، ذكريات لو أحسنا استقبالها ، وتفهمنا أسرارها ، وأخذنا أنفسنا بما توحى به من دروس المجد والعظمة ، لكان لنا بين الأمم الحاضرة ، شأن وأى شأن ، ومقام وأى مقام . .

وتلبية لهذا الإحساس واحتفاظا بمكانة هذه الذكريات وغرسا لها فى النفوس . . كتبت هذا البحث فى ذكريات هذه الأحداث ، تنبيها للوعى ، وإحياء لمعانى العزة والكرامة التى بها ساد أسلافنا من قبل . راجيا أن نتخذ منها سبيلهم ، وأن نعود بها إلى عزتهم .

مولد مؤسس

الإسلام - كما هو معروف - شريعة و بناء . . الشريعة نزلت على محمد ، ليؤسس بواسطتها البناء الإنسانى العالمى ، الذى يسهم فى نهضة البشرية قاطبة ، دون ما نظر إلى جنس أو لون أو دين .

ومحمد - صلوات الله عليه - هو المؤسس الأول لهذه الشريعة ، إذن فقد كان مولده : هو مولد مؤسس دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وأصبح فيما بعد حدثا تاريخيا شغل - ولازال يشغل الأذهان إلى اليوم ، وسيظل يشغلها إلى أن تقوم الساعة .

فى النصف الثانى من القرن السادس ، ميلاد المسيح عليه السلام ، وفى مكة ، إحدى قرى بلاد العرب ، ولد « محمد » من أبوين كريمين ، يتصل نسبهما بنبى الله اسماعيل . وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب ، وهو فى بطن أمه ، آمنة بنت وهب ، لم تنفخ فيه روح الحياة ، ومكث بعد ولادته إلى السنة الخامسة من عمره فى بنى سعد ، حيث كانت ترضعه ، حليمة السعدية ، وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه إلى المدينة ، ومكثت به شهرا فى ضيافة بنى النجار أخوال أبيه عبد الله . وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه . كيلا يشتغل قلبه بالأمومة ، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة ، فانتزعها منه أثناء أوبتهم إلى مكة ، وهكذا نشأه ربه ،

خالى القلب من شواغل الأبوة والأمومة ، متفرغا لما يفاض عليه من حب مولاه .

تولاه الله برعايته ، وصنعه بيده ، آواه من يتم ، وأغناه من فقر ، وهداه من ضلال ومازال يغمره بالفضل والإحسان ، حتى بلغ أشده واستوى فى أفق الإنسانية الأعلى . وتهيأت نفسه لتلقى الرسالة العامة الخالدة ، التى ختمت بها رسالات الحق إلى الخلق ، فأرسله الله رحمة للعالمين ، أرسله بالحق بشيراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ، أرسله بدين أساسه الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقوامه مكارم الأخلاق وصالح الأعمال :

« ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . المدثر

ظل بعد ذلك بمكة ، يدعو عشيرته وقومه إلى التوحيد وعقيدتى البعث والجزاء ، ونبذ ما كان عليه الآباء من الشرك والوثنية ، وسوء الخلق ، وقبيح العادات . ولم يكن له فى تلك الدعوة من سلاح ، سوى سلاح الحكمة ، يغزو بها القلوب ، والموعظة الحسنة ، يهذب بها النفوس ويلطف الطباع .

ولما رأى أن الدعوة لاتتغلغل فى النفوس كما يحب ويريد ، وأن موقف المكيين منه وحقدهم عليه ، وتعصبهم لموروثاتهم ، قد يكون له من النتائج الخطيرة مالا يتفق ونجاح دعوته ، هاجر هو وصحبه إلى المدينة ،

وهناك استقبلته قلوب عاهـدته على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم وأعزاءهم، هاجروا إليهم، ضما للبنات الموحدة، وتوحيدا للصفوف العاملة، وجمعا للقلوب المتحابة فى الله. وهناك ابتدأت الدعوة حياة جديدة، أخذت تغزو الناس فى عقر دارهم، وأخذ الوحى يتتابع من السماء بالقانون الذى ينظم تلك الحياة، وقدسلخ فى تركيزها وتشييدها وتنظيمها مدة حياته بالمدينة، وقد أقر الله عينه بثمرة جهاده، ورأى كلمة التوحيد تعمل عملها فى معسكرات الشرك والوثنية، وتعفى على مظاهر الضلال والبهتان، وعندئذ أنزل الله عليه فى محكم كتابه امتنانا بالنعمة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا..». ثم تلاه قوله تعالى:

«إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا».

هذا هو «محمد» صلى الله عليه وسلم، الذى جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى أن يحتفلوا بذكرى ميلاده فى شهر ربيع الأول من كل عام هجرى. يذكرون الناس فيه بشمائله التى خطر عليها، وعرف بها فى أهله وقومه يوم أن كان غلاما يرعى الغنم، ويوم أن كان شابا يحضر مع أعمامه حرب الفجار، وحلف الفضول، ويوم أن كان رجلا مكتملا، وافر العقل. يرتحل فى تجارة خديجة بنت خويلد، ويرضاه قومه حكما فى النزاع الذى شجر بينهم، فيمن يضع الحجر الأسود فى موضعه من البيت، ويوم

أن كان ناسكا، متحنثا، يفر من ظلمات الدنيا ويلتمس الأنس بربه، ويوم أن فاجأه روح القدس، وهو فى خلوته بمولاه، وضمه إليه وألقى عليه قول ربه:

«اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الانسان مالم يعلم» العلق

ثم يوم أن كان داعيا بعد ذلك إلى الله، يبشر من أجاب، وينذر من أبى. ثم يوم أن ارتحل إلى المدينة، ملتمسا وسائل العزة والنصرة، ومبتعدا عن مواطن الضير والإذلال. ثم يوم أن كان قائدا يتقدم الصفوف، ويتقى به أصحابه، ويتلقى النبال والقذائف. ويوم أن كان حاكما لا يعرف الجور ولا المحاباة؛ وهاديا مرشدا، ومشرعا حكيما.

• • •

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر، لا يفكرون فى إقامة حفل خاص، يذكرون الناس فيه بشمائل رسولهم، ولا بجهات عظمته التى تجلت فى هذه الأطوار كلها. ذلك أنهم كانوا يرون أن عظمته عليه الصلاة والسلام لم تكن فى مكان هذه العظمة التى تألفها الأمم فى نوابغها وأفذاذها، ويخشون عليها الموت، أو التلاشى فى صحف الأيام الماضية، وإنما كانوا يرون ـ كما هو الواقع ـ أنها عظمة، قارة فى النفوس، منقوشة فى القلوب، ولا تقف آثارها عند مدى حياته، ولا على جانب من جوانب الحياة العامة، بل يمتد سلطانها إلى الحياة الآخرة، وتكشف

للناس عن حجب غيبها ، وتصور لهم مايلقون فيها من نعيم وشقاء .

نعم ، لم تكن عظمته من جنس العظمات البشرية المألوفة ، فهى ليست من عظمة الملوك الطغاة ولا الحكام الجبارين ، الذين يستعذبون أنين الإنسانية ، واستعباد الخلق وإذلالهم . وليست من عظمة القواد الطاغين . الذين يفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، ولا يرون السعادة إلا فى الفتك بالضعفاء ، والتخريب والتدمير ، وترويع الآمنين. وليست من عظمة الأغنياء الموسرين ، الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق ، ويمنعون حق السائل والمحروم ، ثم يسخرون عباد الله فى شهواتهم وأهوائهم بشىء من حطام الدنيا الزائل .

إنها عظمة رحمة وعطف ، عظمة هداية وإرشاد ، عظمة تثقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتعمير ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تهيء الحياة الفاضلة عدتها ، وتعبد سبلها ، عظمة تساير الدهر ، وتستقر فى صفحة الخلود ، ويستمد العالم منها ، غذاء حياته الروحية والاجتماعية ، عظمة تتمثل فى تلك التعاليم التى وحدت بين قلوب متنافرة ، وربطت بين قبائل مبعثرة ، واستلت منها الأحقاد والأضغان ، وكونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال ، ذات شخصية ثابته ، ونظام محكم متين ، استطاعت أن تسوس به شعوب الأرض على دعائم قوية من الإيمان والعلم والمعرفة ، والحكمة والعدل .

تلك التعاليم ، التى فوجىء بها قوم ، رسخت فيهم عوامل الفساد فى

الأرض ، وحرفوا الشرائع ، وأفسدوا الفطر ، فعبدوا غير الله ، ونسوا يوم البعث والجزاء ، وانحلت أخلاقهم ، فاستباحوا الدماء ، والأعراض والأموال ، حتى اضطرب العالم . وتزعزعت أركانه ، وماهى إلا صرخة الحق عن طريق « محمد » فيملأ الإيمان قلوبهم . وتسود الرحمة بينهم . فينقلب شرهم خيرا . وفسادهم صلاحا ، وجهلهم علما ، وانحلالهم تماسكا وفوضاهم نظاما ، ويصبحون بنعمة الله وفضل تلك التعاليم ، إخوانا ؛ أساس ترابطهم الإيثار . وسبيل دعوتهم التواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله .

تلك التعاليم ، التى أطلقت للعقل البشرى حريته ، ودفعته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وفكته من السلاسل والأغلال ، وعابت عليه التقليد والجمود والتعب .

هذه التعاليم التى أسست أعظم بناء إنسانى عالمى لتحقيق أرقى ماوصلت إليه المساواة سوت بين الذكر والأنثى ، والحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، وقررت أن الناس سواسية ، وأنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . ونظرت إلى الشعوب والقبائل نظرة واحدة ، وجمعتهم فى ثوب واحد ، ونادتهم بنداء واحد :

« يا أيها الناس ... « ويا بنى آدم » .

تلك التعاليم ، التى قررت مبدأ حرية العقيدة ، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق ، «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» ، «وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . . »

تلك التعاليم التى قررت للإنسانية حق التشريع فى دنياها ، وقررت أنه لا سيادة للحاكم عليها ، وأنه يسعى لخدمتها بتفويض منها ، فلها فيه حق العزل كما لها حق التولية .

تلك التعاليم التى ما تركت فضيلة إلا حثت عليها ، ولا رذيلة إلا حذرت منها ، ولا أصلا من أصول التشريع الحى الناهض إلا قررته ، وطلبته من الناس : شرعا يسعدون به فى الدنيا ، ودينا ، ينعمون به فى الآخرة .

تلك التعاليم ، التى كانت شفاء ورحمة للعالم : غرست بذور الخير فى نواحيه ، ونهضت بالإنسانية من كبوتها ؛ وسمت بها إلى المكانة اللائقة بها ؛ مكانة الخلافة عن الله رب العالمين .

تلك التعاليم ، التى ظهرت وتجلت ، وتظهر وتتجلى من وحى الله لعبده محمد ، هى عنوان العظمة المحمدية ، جرت آياتها على لسانه ، فقرعت الأسماع ، وخالطت القلوب ، وعملت عملها فى التوجيه والإرشاد ، ومحمد

هو محمد الأمى ، الذى لم يقرأ ولم يكتب ، والذى نشأ فى مكة التى لا ترى فيها إلا رمالا وجبالا . والتى لا تعرف علما ولا تأنس بحضارة :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » .

العنكبوت

« إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنى فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . »

النجم

هذا هو محمد وتلك عظمته ، بها آمن الأوائل . وبذلوا نفوسهم فى ترسم خطاها ، والجد فى نشرها ، والعمل على انتفاع الإنسانية بها ، فكانت جميع أيامهم ذكرى لتلك العظمة ، وكانت حركاتهم وسكناتهم أقلاما من نور ، ترسم خطوطها البارزة فى صفحة الوجود العام .

ألا وإن الذكرى الحقة لحياة هذا النبى العظيم ، ولتلك العظمة الباهرة ، إنما تكون بتعرف تلك التعاليم ، وبث حكمها وآدابها ، والتضحية فى سبيل نشرها ، والعمل بمقتضاها حتى يضمحل الشر ويعظم الخير . وتتحقق إرادة الله فى العالم :

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

أساس البنـــاء

لكل شيء فى هذه الحياة إيحاء ، ولأسماء الأشخاص إيحاء ، ولأسماء الأمكنة إيحاء ولأسماء الأزمنة إيحاء . ومامن مرئى ، يقع عليه البصر ، ولا مسموع يتصل بالسمع ، إلا وله إيحاء يوحى بلوازمه وخواصه ، ويوحى بأحداثه .

ولعل أقوى مايربط الإنسان بماضيه ، وينير له طريق مستقبله ، ويركزه فى حاضره على أسس قوية وسبل بينة ، هو مايتلقاه من هذه الإيحاءات .

ولعل أيضا أقوى مابعث الناس إلى اتخاذ الأماكن أو الأزمنة مثارا لذكريات الماضى فيذهبون به وعيهم القومى والتاريخى وهوما يلهمون به فى تلك الإيحاءات من وسائل العزة والكرامة ، ووسائل الخير والفلاح .

على هذا وذاك فطر الإنسان ، فتلقى الوحى من الزمان والمكان ، واندفع إلى تقديس مصدر ذلك الوحى ، فرمضان مثلا لم يكن فى ذاته إلا اسما لشهر معروف فى السنة القمرية ، ولكن له عندنا معشر المسلمين ، إيحاء تهتز له القلوب ، وتنشرح به الصدور ، وتسمو به الأرواح ، وليس ذلك لأنه فقط ، شهر الصوم الذى فرضه الله علينا ، وجعله ركنا من أركان ديننا ، ثم رفعه إليه فجعله له ، وهو يجزى به ، ليست مكانة رمضان لهذا

فقط ، بل لهذا ولما يوحى به من شأن خاص متصل بالنفس يحسه المؤمن كل عام متى دخل فى ضيافته ، ومن حوادث كان لها أثرها البالغ فى تركيز قوة الحق ، وتوجيه العالم إلى الخير والصلاح .

وكلما اتسعت معارف الإنسان بخصائص رمضان وحوادثه كثرت خطوط إيحائه عنده ، ولقد امتد إيحائه حتى أدركه الأطفال وهم فى الشوارع يلعبون ، فهم لا يكادون يلهمون بحلول رمضان أو يسمعون بكلمة رمضان ، حتى نراهم قد تجمعوا وجاسوا خلال الديار ، يرتلون الأغانى ، ويحملون المصابيح . معلنين الفرح والابتهاج بحلوله وسريان نوره ، وكأنهم لمحوا من وراء الحجب ومن حيث لا يشعرون ما حمله رمضان ويحمله من النور والهدى ومن معنى التآلف والترابط ، فرمزوا إلى كل فى حفاوتهم الطبيعية البريئة بالتجمع والترنم وإضاءة المصابيح .

أما الذين يفهمون رمضان من جهة مافرضه الله فيه كل عام ، فكلمة رمضان توحى إليهم برحلة إلهية ، ميقاتها الشهر كله ، يخلع فيها المؤمن نفسه من هموم الدنيا وأكدارها ، إلى لذة لا يعرفها ألم ، وسعادة لا يعرفها شقاء ، فيبدأ يومه باسمك الله صمت ، ويختم نهاره باسمك اللهم أفطرت . وفيما بين الوقتين يقوم لله قانتا ، ويركع مسبحا ، ويسجد داعيا ، ثم يرتل وحيه وقرآنه حتى مطالع الفجر . وهكذا دواليك ، حتى يبلغ الغاية ويصل النهاية ، فيسبغ الله عليه حلة الرضا والغفران ، ويعود بها إلى دنياه وقلبه متعلق بمولاه ، يخشى الحرمان بعد العطاء ، والغضب بعد الرضاء .

والطرد بعد الإيواء ، فيظل متمسكا بجانب التقوى ما استطاع ، فيفى للرب بعهده ، ويقوم للعبد بحقه . وبهذا يتكرر الدرس كل عام حتى يصير الإنسان مصدر خير دائم لنفسه وللناس .

وإذا كان لرمضان هذا الإيحاء المتكرر فى كل عام باعتبار ما فرضه الله فيه من عبادة الصوم ، فإن له من جهة أحداثه التى وقعت فيه ، إيحاء بحوادث ثلاث ، كان لها أعظم الآثار فى تاريخ الإسلام ، بل فى تاريخ البشرية كلها باعتبار ما ترتبط به فطرتها من معرفة الحق وتركز قوته ، وانتشار سلطانه .

تلكم الحوادث الثلاث هى : نزول القرآن الكريم ، وانتصار المسلمين فى غزوة بدر ، وفتح مكة المكرمة وعودة أبنائها إليها . وكان أبرز هذه الحوادث ، هو نزول القرآن على رسول الله ، ليضع حجر الأساس فى بناء الاسلام ، هذا البناء الشامخ الذى أريد له أن يكون حصنا للبشرية من بوائق الشر ، ومنغصات الباطل ، وذبذبات الانحلال .

فى وقت تربع الباطل فيه عرش السلطان والتوجيه ، فأفسد من الإنسان عقله حتى أنكر ربه وخالقه ، وعبد مالا يسمع ولا يبصر ، وتقرب إلى مالا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وأفسد منه عاطفته ، عاطفة الرحمة والرأفة ، وملأ قلبه جبروتا وقسوة ، فقتل أبناءه خوف الفقر ، ووأد بناته خوف العار ، واستحل الأعراض وهتكها ، واستذل الضعفاء واحتقرهم ، وأفسد عليه أيضا تصوره للحياة حتى ظنها مادة بحتة ، عليها

يتهالك ، ولها يجمع ، وبشهواتها يلهو ويلعب .

فى هذا الوقت أطلق الله نور الحق ، على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنزل عليه لأول مرة قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

ثم استنهض همته ، ورسم له طريق الدعوة ، فأنزل عليه قوله :

« يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

وبهذا أشرق على الإنسانية نور جديد ، يقرر للناس فى أسس حياتهم العلم والمعرفة ، ويقرر أن كرامة الإنسان فى أن يستعين فى حياته وشأنه كله ، باسم الله الذى خلقه وعلمه . . لا باسم أحد سواه .

أخذ الوحى يتتابع بعد ذلك ، فوضع أصول العقائد الحقة ، وأمهات الأخلاق الفاضلة ، وحدد نظم المعاملات الاجتماعية ، والروابط الشخصية ، وأرشد فى كل شىء إلى التى هى أقوم .

وبهذا الكتاب ، عرفت البشرية كلمة الحق فى الألوهية والرسالة والبعث والجزاء ، وعرفت كيف يرتبط الانسان بأخيه الانسان ، ارتباطا يحقق حكمة الله فى خلقه ، واستخلافه فى الأرض .

كان ذلك فى ليلة سماها الله فى كتابه بليلة القدر ، ووصفها فيه بأنها ليلة مباركة :

«إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها ، بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر» .

«حم ، والكتاب المبين . إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم أمرا من عندنا ، إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم» . الدخان

ثم أرشد إلى شهر تلك الليلة ، وكان هو الشهر الوحيد الذى حاز شرف التصريح باسمه فى القرآن الكريم .

«شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه» البقرة

وبهذا تزلزل عرش الباطل وهدمت قوائمه ، وكان أعظم ذكرى ، يوحى بها رمضان ، وكان افتراض الصوم فيه على المؤمنين بتلك الهداية ، الأسلوب الإلهى فى الاحتفال بذكرى نزول القرآن ، فالقرآن يسمو بالعقل والأفكار ، والصوم يسمو بالنفوس والأرواح .

صقل وإعداد

«إنا أوحينا اليك ، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط ، وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما . لكن الله يشهد بما أنزل اليك ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيدا» . النساء

هؤلاء الرسل ، هم ألسنة الاصلاح الالهى ، ودعاة الخير والتزكية ، التى يريدها الله لعباده بها ، ينظمون فطرهم ، ويكملون إنسانيتهم ويصلون بها إلى ما قدر لهم من كمال ، وتبعا لتفاوت الأطوار التى درجت فيها الإنسانية ، فضل الله بعض هؤلاء الرسل على بعض ، حتى إذا ما وصلت الانسانية إلى مرحلة الرشد ، وتأهلت لخوض غمار هذا الكون ، والكشف عن أسراره ، وتفتحت لها عيون الحكمة فيه - كان رسولها فى تلك المرحلة ، هو الرسول الأعظم الرسول العام ، رسول الإكمال والإتمام ، رسول اللبنة الأخيرة ، التى بها يكمل البناء ، ويتم حسنه وإبداعه : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا» .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » .

وهكذا كان وضع محمد من إخوانه السابقين ، وبهذا الوضع رفعه الله درجات ، وجعله مظهراً لكمال رحمته بالانسان ، وسجل له فى رحمته ، ورسالته ، وكتابه ، حسن عاقبته ، وأمته . من درجات الفضل والرفعة ، ما لم يسجل لأحد قبله .

ففى خاصة نفسه :

« ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك . ورفعنا لك ذكرك » .
الانشراح

« ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم » .
القلم

« والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى »
الضحى

وفى رسالته :

« وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .
التوبة

وفى كتابه :

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ، وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا . وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .
الإسراء

وفى أمته التى آمنت به واستضاءت بهديه فى الحياة :

« كنتم خير أمة أخرجت للنـــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. »
آل عمران

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .
البقرة

هذه بعض الدرجات التى رفع الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، وما نسبتها إلى ما وراءها من درجات الكمال التى أنعم بها عليه ، إلا كنسبة الرذاذ الى الغيث الغزير ، أو الوشل الى الخضم الكبير .

* * *

لقد كان المؤسس الأول لهذا البناء الإسلامى خاتم الرسل ، وأكثرهم تعرضا للأذى والاختبارات القاسية ، فأكثر من عشر سنوات فى مكة المتمردة على دعوة الله ، لقى فيها من صنوف العنت والإرهاق بما لا طاقة لنفس من النفوس به ، وبما لا تحتمله الجبال الرواسخ ، ويوم أن توفى عمه أبو طالب وزوجه أم المؤمنين خديجة ، انهار ركنان قويان كان يعتمد عليهما كثيراً فى شد أزره وهو يدعو الناس إلى عناصر الحق والخير والجمال ، وجاءت الفرصة بعد ذلك مناسبة ليرحل إلى الله فى رحله روحية تصقل خلالها روحه ، وتعد نفسه إعداداً يؤهله لمواجهة ما ينتظره البناء الإسلامى من عواصف قد لا تهدأ ولا ترحم .

وإذا كانت قلوب أتباعه مؤمنة بماله من هذه الدرجات عند ربه ، وكانت قلوب غيرهم تحترم الحق ، فتنظر اليه بعين الإجلال والتقدير ، وتنظر اليه بعين الواقع المحس المشاهد فيما أتيح للعقل البشرى من مخترعات ـ كان من السهل على الناس جميعا أن يؤمنوا بما قصه الله علينا ، وقصه هو على أصحابه فى حادث الإسراء والمعراج .

* * *

وحادث الإسراء والمعراج حادث فذ ، لم يعرف مثله لأحد غير النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، حادث لا يعزب عن القلوب جلاله ، ولا يخف من الأذهان مداده ، فهو على الدوام شاخص فى قلوب المؤمنين ، وماثل فى

أذهانهم وضمائرهم ، يعرفون به أن الله أكمل تربية نبيهم ، وأعد قواه النفسية والعقلية والجسمية ومحص ضمائرهم ، وكشف عن مؤمنهم وكافرهم ، إعدادا لتحمل أعباء الرسالة ومتاعب الهجرة ، وتبعات الأخوة الدينية ، ومشاق الجهاد فى سبيله . وقد سجل الله حادث الإسراء فى كتابه ، وجعله منحة الملك الكريم لعبده المخلص الأمين :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

وقد صحت الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم فى المعراج ، فى مبدئه ومنتهاه ، وفيما تمثل له فيه من آيات ربه الكبرى .

وبالإسراء والمعراج اعترف لمحمد بكيانه ؛ فواصل هو وأتباعه المؤمنون ، الدعوة إلى الله ، فهاجر وجاهد ، وظل يجاهد حتى جاءه نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

كان النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بمكة إلى ربه ، وله من عباد قلبان ، قلب فى البيت يسكن اليه فيزمله ويدثره ، ويطمئنه ويبشره . وقلب فى الناس ، يحميه ويذود عنه ، زوجه خديجة وعمه أبو طالب . وقد ماتا فى عام واحد ، فاشتد حزنه ولاحقته وأصحابه أنواع الإيذاء والكيد الساخر ، ونالت منه قريش مالم تكن تطمع فيه فى حياتهما ، اعترضه السفهاء ونثروا التراب على رأسه . وطرحوا سلا الجزور على

كتفيه ، وهو قائم بين يدى مولاه ، يعبده ويناجيه ، وهكذا تحالف عليه القدر والناس ابتلاءً واختبارا ، وما كاد يخرج إلى الطائف يلتمس من أهله النصرة والمعونة حتى قوبل بأشد مما قوبل به من قومه . فرجع وقد تقطعت فى نفسه وسائل الإستعانة بخلق الله ، واتجه إلى من بيده الأمر ، وآبت نفسه بالضراعة ، وانطلق لسانه بالدعاء :

« اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ! إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى يا أرحم الراحمين » .

فى هذا الجو الربانى الخالص ، يمد الله يده إلى عبده محمد ويضمه اليه ، وفى مدة وجيزة ؟ يسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . ثم يعرج به إلى حيث شاء ، وهو رب العزة والملكوت ، رب القدرة والقهر ، رب الأسباب والمسببات ، الأرض جميعا فى قبضته ، والسموات مطويات بيمينه ، يسرى به ، فيريه من آياته ما يبدد عن نفسه الشريفة سحائب هذا الجو الأرضى الخانق ، ويضىء له المستقبل ويحقق له وعد الله الحق . « ولسوف يعطيك ربك فترضى » فيزداد إيمانا على إيمان . بأن الله الذى أرسله وكلفه دعوة خلقه إلى توحيده ، ثم ابتلاه بعنادهم وكيدهم . هو صاحب هذه القدرة . التى أبدعت تلك الآيات ، ومكنته من رؤيتها فى وقت غير مألوف ، وعلى وجه غير

معروف . فهو إذن ولاشك ناصره ومؤيده ، وهو ولا شك مخرجه من تلك الشدائد ، ومطهره من هؤلاء الطغاة ، الذين ضربوا عليه وعلى أصحابه حصار القوت والزاد .

وهكذا كان ، وهكذا نصر الله عبده وأتم نوره . فلنؤمن بحادث الإسراء والمعراج ولنؤمن بشأن الله مع نبيه الذى صنعه بيده وحاكه بحكمته ، فالفيض غزير ، والاستعداد تام ؛ والقدرة باهرة ، وآيات الله فى الكون ناطقة شاهدة ، لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلا :

« ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . الاسراء

نعم فلنؤمن بحادث الإسراء والمعراج ، كما أراده الله ، ولنؤمن بأنه درجة من درجات الفضل والتكريم ، صقل الله بها بناءه ، وثبت بها نبيه ، وملأ بها فى الملأين ذكره ، ومحص أتباعه ، وطهر جنده :

« وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس .. »

« أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ..

« ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين » العنكبوت

هذا هو حادث الاسراء والمعراج ، وهذا هو هدفه ، وتلك حكمته

بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين احتملوا عبء الدعوة والأذى . أما نحن معشر المسلمين اللاحقين ، فجدير بنا أن نترسم سبيل أصحابه الكرام وخلفائه من بعده فيما فهموه من إيحاء هذا الحادث ، ثم فيما كان لهم من جهاد فى تحقيق هذا الإيحاء . فهموا منه أنه توجيه روحى لهم ولجميع المسلمين من بعدهم . إلى أن الإسراء بمبدئه . « المسجد الحرام » ومنتهاه « المسجد الأقصى » يرسم لهم مهابط الوحى الأول الذى تلقاه إبراهيم وإسماعيل ، ومهابط الوحى الثانى، الذى تلقاه موسى وعيسى ، وأنها كلها مهابط الرسالات الإلهية ، التى جاء محمد لتكميلها والهيمنة عليها ، فلابد أن يخفق عليها دائما علم التوحيد والإيمان ، وأنها المواطن التى يجب أن يعلو فيها سلطان الحق ، وأن تطهر رقعتها من عناصر الظلم والفساد .

فهموا ذلك من حديث القرآن ، بعد آية الإسراء عن كتاب موسى:

« وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا » .

ومن حديثه عن خروج بنى إسرائيل عن مقتضى هذا الكتاب :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا » الاسراء

ثم من حديثه فى الآيات نفسها عن وعيدهم بالتنكيل إذا هم استمروا الفساد وعادوا اليه :

« وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا »

وأخيرا من حديثه عن مركز القرآن فى هداية الله ، التى ختم بها رسالاته : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم .. »

فهم الأصحاب ذلك من حادث الإسراء ومن وضعه القرآنى ، وقد فهموه من توجيههم فى الصلاة إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً ، فتوجهت بهذا الإيحاء قلوبهم وقواهم إلى امتلاك هذه المواطن التى ربطهم بها حادث الاسراء . ثم حادث التوجيه فى الصلاة ففتحوها وثبتوا أقدامهم فيها ، وتم لهم ما أرادوا وأراد الله . وأصبحت الكلمة فيها لله وحده ، بعد أن كانت للشيطان والهوى .

وها هو ذا قد لعب الشيطان مرة أخرى ، وأراد العبث فى مواطن الوحى الالهى ، فهلا يتنبه المسلمون إلى هذا الايحاء المزدوج ، الذى تنطق به ذكرياتهم ، ويتضمن الإشارة اليه كتابهم وهل يسيرون فى طريق هذا الإيحاء كما سار أسلافهم من قبل فيوحدوا كلمتهم ويستردوا مكانتهم ، ويطهروا أرض الله المقدسة من عبث العابثين وكيد الكائدين ، ويزيلوا عن أنفسهم تلك النكسة التى أصابتهم ففرقت قلوبهم ، وشتت قواهم ، ومكنت منهم أعداءهم الألداء ، وتركت البناء الاسلامى مطمحا لأنظار العصابات المشاغبة ، والأفاقين المتجردين من القيم الأخلاقية ، والمعانى الإنسانية ...؟؟

نقطـــة تحول

فى تاريخ الإسلام فى العهد المكى نقطة تحول . فقد كان المسلمون يتجهون فى صلاتهم إلى بيت المقدس . ثم وُجهوا بأمر الله إلى بيته الحرام بمكة ، فكان هذا التحول اعترافا بالكيان الدينى للمسلمين ، ولفتة كريمة من الله ، تحمل معنى التحية والتقدير للعرب ، الذين ولد منهم محمد ، وكانت أرضهم المهد الأول للدعوة الاسلامية الكبرى . وقد ذهب المؤرخون إلى أن الليلة التى تحولت فيها القبلة من بيت المقدس إلى مكة ، صادفت ليلة النصف من شهر شعبان ، وبدلا من أن يحتفل المسلمون بهذا المعنى الكبير ، احتفلوا بتقاليد ومراسم ليست من الاسلام فى شىء .

فقد جرت عادة المسلمين فى عهودهم الأخيرة أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان ، احتفالا دينيا ، نرى مظهره فى المساجد وفى البيوت . . فى المساجد ، يجتمعون عقب صلاة المغرب ، ويصلون صـــلاة خاصة تعرف باسم صلاة النصف من شعبان ، ثم يقرءون بصوت مرتفع ، سورة معينة هى سورة «يس» ، ثم يبتهلون كذلك بدعاء يعرف « بدعاء ليلة النصف » ويكررون ذلك ثلاث مرات : أولاها بنية طول العمر ، والثانية بنية دفع البلاء ، والثالثة بنية الغنى .

أما فى البيوت ، فهم يهتمون اهتماما خاصا بتهيئة طعام يجتمع عليه جميع أفراد الأسرة بعد صلاة العشاء .

ويعتقد العامة وأشباههم أن الاحتفال هكذا ، يستند إلى أصل دينى من كتاب الله أو سنة الرسول ، كما يعتقدون أن التخلف عن احتفال المساجد ، أو عن حضور العشاء مع الأسرة نذير سوء بقصر العمر ، وكثرة البلاء ، والحاجة إلى الناس . وقد كان من أثر هذا الاحتفال أن بعض تجار الكتب ينتهزون فرصة النصف من شعبان . فيطبعون سورة يس مع الدعاء . وتوزعها الصبية فى الشوارع وملتقى الطرقات والترام ، منادين . سورة يس ودعاها . . بخمسة مليمات . .

وينبغى أن يعلم أولا :

أن إقامة الاحتفال باسم الدين لا بد أن تكون مبنية على أساس صحيح من الدين ، وذلك كما فى الاحتفال بصلاة الجمعة والعيدين ، والوقوف بعرفة فإذا لم يكن للدين فيه أمر ولا ترغيب ، كانت إقامته باسم الدين ، وإفراغ صبغة الدين عليه . من الصلاة والقراءة والدعاء افتراء على الدين ، وتشريعا بالهوى ، فيما يعمل باسم العبادة والتقرب إلى الله . وهذا باب يهيىء فتحه للناس وجوها كثيرة من صور الابتداع فى الدين من شر ما يصاب به الدين ، فبه يدخل فى الدين ما ليس منه ، وعن هذا الطريق ينتشر الدين بين الناس بصورة تبعد قليلا أو كثيرا عن حقيقته التى رسمها الله ، وتعبد الناس بها ، والتزموها فى العمل رسوله

وأصحابه من بعده . وقد تغمره صور الابتداع بالسكوت عن إنكارها ، تساهلا أو مجاملة للعامة وأشباههم فيما تهوى نفوسهم واعتادوا عليه ، وبذلك تطمس معالم الدين الأولى . ويلحقها التغيير والتحريف ، ويتقرب الناس إلى الله بما لم يشرعه الله ، قربة إليه . ومن هنا تنسى الشرائع ، وتضل العقول .

نعم ، للناس أن يقيموا ما شاءوا من الاحتفالات الانسانية التى يظهرون بها سرورهم بنعم الله الخاصة بهم. كزواج أو ميلاد ، أو قدوم غائب . ولهم أن يقيموها ذكريات لحوادث تاريخية ، كان لها فى حياة أمتهم أثر ينبغى أن يذكر ولا ينسى .

للناس أن يقيموا هذه وتلك . باسم العائلة ، أو القومية ، لا باسم الدين ، يتخذ له مظهر دينى ، تخصص له صلاة معينة ، ودعوات معينة ، من أيام معينة ، فى أشهر معينة ، فى حين أنه لم يرد شىء عنها فى الدين كما هو الشأن فيما اعتادوه ليلة النصف من شعبان ، وإن ذلكم هو الابتداع فى الدين الذى حذرنا الرسول إياه ، وأنذرنا سوء عاقبته .

فليلة النصف ، لم يصح فى صلاتها حديث ، والاجتماع لإحيائها فى المساجد وغيرها لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه . وحديث النزول فيها إلى السماء الدنيا ، راويه وضّـاع . ودعاؤها الذى يتلقنه الناس بعضهم من بعض ويحفظه متعلمهم وجاهلهم على خلل فى التلقين دعاء يحتوى على أمرين ، كلاهما يؤدى إلى تفسير القرآن بما لا يشهد بصحته نقل ولا عقل .

أحدهما . أن فيه يطلب الناس من الله محو ما كتبه فى أم الكتاب ، من الشقاوة وتبديلها بالسعادة ، ومن الحرمان وتبديله بالعطاء ، ومن الإقتار وتبديله بالغنى ، ويسندون ذلك إلى أن الله قال فى كتابه :

« يمحو الله ما يشاء ويثبت . . وعنده أم الكتاب » .

وسياق هذه الآية يرشد بوضوح إلى أن المقصود منها الرد على من أنكر على النبى صلوات الله عليه ، أن شريعته تغير أحكاما وردت فى الشرائع السابقة ، فهو يقول لهم : إن محو الشرائع وإثباتها تبع لمشيئة الله وعلمه بما فيه مصلحة عباده ، فهو يمحو من الشرائع السابقة ما لا يتفق واستعداد الأمم اللاحقة وعنده أم الكتاب ، والمراد بها إما العلم الالهى الذى يبنى عليه المحو والتبديل . وإما أصول الأديان التى لا تختلف باختلاف الأمم . ولا ينالها محو ولا تبديل .

وعلى كل ، فأم الكتاب فى الآية لا محو فيها ولا تبديل . والآية لا علاقة لها بالأحداث الكونية ، عامة كانت أم خاصـة . والدعاء المعروف يصرف الآية إلى تلك الأحداث : وهو صريح فى طلب المحو والتبديل فيما كتب فى أم الكتاب ، وهو خطأ دينى واضح .

والأمر الثانى : وهو من الأمرين اللذين اشتمل عليهما هذا الدعاء ، فهو : أنه يصف ليلة النصف بأنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، وقد جاء هذا الوصف لليلة التى أنزل الله فيها القرآن :

« إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ، إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم » الدخان

وقد لعبت الروايات فى هذا المقام دورا هاما ، وبحكم هذا الدور، قيل : إن الليلة المباركة ، هى ليلة النصف التى تقدر فيها الأعمار ، والأرزاق ، وسائر الأحداث الكونية ، وامتد الكلام إلى الفرق بين التقدير الذى يحصل فى ليلة النصف ، والتقدير الذى يحصل فى ليلة القدر ، بما يعتقد كل مؤمن ، أنه هجوم على غيب استأثر الله بعلمه .

والصواب كما قال المحققون من العلماء السابقين واللاحقين . أن الليلة المباركة هى ليلة القدر المذكورة بقوله تعالى :

«إنا أنزلناه فى ليلة القدر . فالليلة التى أنزل فيها القرآن . وصفها الله بأنها ليلة مباركة ، فيها يفرق ويفصل كل أمر حكيم . وسماها ، ـ ليلة القدر ـ ، تنزل فيها الملائكة والروح . بإذن ربهم من كل أمر .

وجاء فى سورة البقرة ، أن شهر تلك الليلة هو رمضان :« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

وبذلك تلاقت الآيات ، وشد بعضها أزر بعض ، واتفقت فى بيان الزمن الذى بدئ فيه بنزول القرآن ، وفى بيان فائدة القرآن للناس ، من شرح الأحكام ، والهدى إلى دين الله .

وبعد : فأين ذلك الذى يحتويه الدعاء . من هذه الحقيقة القرآنية الواضحة ؟ إذن ، هو دعاء باطل ؛ ويجب على المسلمين أن يتركوه . وأن

يتجه من أراد الدعاء ، منفردا إلى ربه بالأدعية المأثورة الصحيحة ، أو التى لا تتعارض مع القرآن ولا أحكامه ، فى أى وقت ، وفى أى مكان .

نعم ، صحت الأحاديث بفضل شهر شعبان كله ، لا فرق بين ليلة وليلة ، وطلب الإكثار فيه من الصوم ، تهيئة لاستقبال رمضان .

ومن ذلك قول النبي ـ صلوات الله عليه ـ ، وقد سئل : « أى الصوم أفضل بعد رمضان ؟ فقال : شعبان لتعظيم رمضان ، وتعظيم رمضان ، يكون بحسن استقباله ، وعدم التبرم من صومه . .

. . .

هذا تمهيد لا بد منه ، فما أضر على الاسلام وتشريعه من هـذا الابتداع ، فالاحتفال بليلة النصف من شعبان على الطريقة المشهورة لا يهدف إلى أدنى معنى ، مع أن هناك معنى كبيرا لا يكاد المسلمون يحسون به أو يحفلون .

فإذا كان للناس أن يحتفلوا بليلة النصف من شعبان فلهم أن يحتفلوا بها ، احتفالا قوميا تاريخيا ، على ماذهب إليه أكثر المؤرخين من أنها الليلة التى وجه المسلمون فيها من بيت المقدس إلى الكعبة ، وبهذا التوجيه كمل ربط قلوب المسلمون بأماكن الله المقدسه : بيت المقدس وإقليمه ، والكعبة وإقليمها . وفى هذا الربط إيحاء روحى بالمحافظة على تلك الأماكن المقدسة . وبالتضحية فى سبيل تطهيرها من عبادة غير الله ، ومن سلطان غير المسلمين .

وقد عرض القرآن الكريم لحادث تحويل القبلة عن بيت المقدس

إلى الكعبة ، وأعد النفوس له ، ولما يقول فيه الخصوم قبل وقوعه . وبين لهم حكمته وهدفه . وأنحى على الذين اتخذوه سبيلا للطعن فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والذين تزعزعوا فى إيمانهم بسببه ، وكان فى كل ذلك إيحاء بأن شأن المؤمنين المبادرة إلى امتثال مايؤمرون به ، غير مكترثين بما يثيره الأعداء حول شرائعهم وأحكام دينهم . واقرأ فى هذا الحادث قوله تعالى :

« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم ، إن الله بالناس لرءوف رحيم ...

إلى قوله :

ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام .. البقرة

إن حادث تحويل القبلة ، بدء مرحلة جديدة فى تاريخ الإسلام ، فيها تكتل المسلمون العرب ، حين اعترف بكيانهم الدينى ، وآمنوا بوعد الله لهم ، فعقدوا الخناصر على التضحية بالنفس والمال فى سبيل إنقاذ البشرية من براثن الشرك ، وقوى الطغيان ، وتطهير الأماكن

المقدسة من الأصنام والأوثان ، ونشر ألوية العدل والسلام على ربوع العالم . وقد تم ما أراد الله من ذلك على أيديهم فجاءهم نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وتمتعوا بجمال العدل والحرية والمساواة .

فعلى المسلمين أن يتنبهوا إلى هذا الإيحاء ، ويتكتلوا فى سبيل المحافظة عليها ، كما تكتل أسلافهم من قبل وطهروا بيت المقدس ، كما طهروا الكعبة ، فليشدوا إليهما الرحال وليحافظوا على المجد والتراث .

ميلاد دولة

إن نقطة التحول فى حياة الإسلام هى الهجرة ، والهجرة من الأحداث الفذة التى كانت تمهيداً لتثبيت البناء الإسلامى وميلاد دولة داخل إطار من القوة ، ووضع حد لمهازل الاعتداءات المتكررة عليه من قوى الشر .

إن ثلاثة عشر عاما قضاها الإسلام بين أرجاء مكة ، وسط أمواج من الكبت والإرهاق ، دون أن ينال من القلوب إلا عدداً يحصى ـ هذه السنوات الثلاث عشرة كانت كفيلة بأن يفكر المسلمون فى هجر مكة ليكون لهم وجود وكيان ، وليستقر بناء الإسلام فى أرض أظهرت الترحاب به ، ووسط قلوب أظهرت استعدادها للذود عنه . .

هذه الهجرة من الأحداث الاسلامية الكبرى ، التى يجب أن تظل تحمل العظمة فى نفس كل مسلم .

والهجرة اسم للخروج من أرض إلى أخرى ، وهى من الهجر ، بعض الترك ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » ثم غلب إطلاقها على هذا الحادث التاريخى العظيم ، الذى غير وجه البسيطة ، وحول اتجاه الناس عن مجارى الشر والشقاء إلى سبيل الخير والسعادة .

ذلك الحادث ، هو انتقال النبى محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ،

الذين آمنوا به من مكة مهبط الوحى لأول مرة ، إلى المدينة ، مأوى رجال الحلف والمناصرة .

وقد عنى المؤرخون كثيراً وهم يتكلمون على هذا الحادث بذكر حوادث الإيذاء التى كانت تتصل بالرسول وأصحابه الذين لبوا دعوته : ومن هنا ألبسه أرباب الهوى الخاص وهم يكتبون سيرة «النبى العربى..» « ثوب الفرار وعدم الصبر والاحتمال فى القيام برسالته ، ولم يتورعوا إمعانا فيما يشتهون أن يطلقوا عليه كلمة « النبى الفار » وقد ظنوا أن هذا الثوب المهلهل الذى خلعوه على هذا الحادث العظيم ، يستطيع أن يستر الحقيقة التى يحملها بين جنبيه ، والتى لم تلبث بعد الوصول إلى المدينة أن سطع نورها وانتشر أريجها . وبددت الغشاوة التى وضعها الجهل على العقل البشرى حينا من الدهر .

والواقع أن هذه الهجرة البدنية لم تكن إلا أثرا من آثار هجرة القلوب عما كان عليه القوم من عقائد فاسدة ، وشرائع باطلة ، وعادات وتقاليد ؛ كان لها فى هدم الإنسانية ما ليس للمعاول القوية فى تقويض البناء الشامخ العتيد .

نعم . هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ،وصحبه الذين بادروا بتصديقه من يوم أن بعثه الله بالحق بشيرا ونذيراً ،وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . هاجروا إلى التوحيد البرىء. والإخلاص النقى، والإنابة الحقة، والتوكل الصحيح . ومحبة الخير للخير ، والرجوع بالحول والقوة إلى الله

الواحد القهار . هاجروا إلى هذه التعاليم السامية التي نهضت بالانسانية من كبوتها ، ورفعتها من حضيض هوت إليه في جاهليتها ، وذكرتها بأنها ما خلقت عبثا ولا باطلا ، ولا لتفسد في الأرض أو تسفك الدماء ، أو يأكل قويها ضعيفها . ذكرتها بأنها ماخلقت إلا لتكون خليفة عن الله رب العالمين ، تسبح بحمده ، وتقدس له ، وتعمل صالحا حتى تسمو بالعالم إلى ما يمكن أن يصل إليه من درجات الرشد وأطوار الكمال .

هذا ماهاجر إليه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه القليل، الذي لبي دعوته وهي في مهدها ، لا لشيء سوى أنها الحق الذي شرح الصدور واستولى على الحواس والأفئدة ، وامتزج بالدماء والأرواح . فامتلأت النفوس غيرة عليه في حفظه ونشره ، والعمل بمقتضاه ، وإسعاد الانسانية به .

رأى هذا النفر القليل الذي أدرك اللذة الروحية من دعوة النبي ، وأدرك أن سعادة العالم متوقفة عليها . أن مكة - وقد تألب أهلها عليهم وقلبوا لهم ظهر المجن ، وقعدوا لهم في كل مرصد ، ونقبوا عليهم في كل شعب ، وتجسسوا عليهم من كل نافذة ،وأذاقوهم من التنكيل أصنافا وألوانا - لم تعد دار أمن وطمأنينة، يتسع لهم فيها مجال العمل،ويتمكنون فيها من تلبية الإيمان والقيام بحقه .

رأوا أن غايتهم التي لها يعملون، تنحصر في توحيد الله والدعوة إليه، وأن الله الذي وجهوا إليه وجههم فاطر السموات والأرض ، يعبد

في كل مكان: «ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم .»

رأوا أن الأرض ، منها خبيث جدب لا يقبل البذر الطيب ولا ينبت النبات الحسن ، ومنها طيب خصب ، يتشرب ماءه ، ويمد بذره بقوى الإنبات . ثم لا يزال به حتى ينمو ويثمر : «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا» .

رأوا أن الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، لابد أن يظهره على الدين كله ، وأنه غالب على أمره ، «ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون» . رأوا أن استمرارهم على الإقامة بهذا البلد مع هذا الاضطهاد ، وعدم تهيؤ أهله للقبول، سيقضي لامحالة عليهم وعلى الدعوة التي امتلأت نفوسهم غيرة عليها وحبا لها .

رأوا أن جبال مكة وهضابها لم تستطع أن تمنع أريج الدعوة التي آمنوا بها ، واستعذبوا العذاب والموت في سبيلها من أن يسري وينتشر ، ويحمله الجلال والجمال حتى يقع من المدينة وهم مقيمون بمكة في: «بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» .

رأوا أن هؤلاء الرجال يقتحمون العقبة عن إيمان قوي وحب عميق ، ويمدون إليهم يد البيعة ، تريد الوفاء والصدق . وبذل المهج ،

دون الرسول ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فيتم العهد على عبادة الله وحده ، وعلى أن يمنعوه مما يمنعون منه الأبناء والأعزاء .

رأوا أن سبب النصر بهذا قد تهيأ ، وسبيل العمل على العزة قد تمهد ، فلم يجدوا بدا من التمسك بهذا السبب فاتجهوا إلى مدينة الأنصار ، وتم لهم بفضل الله ما أرادوا .

وصل النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه إلى المدينة ، وكان هذا أشد ما يخافه المشركون ، فقد اجتمع رؤساؤهم وقادة أمرهم فى دار ندوتهم للتشاور فيما يتخذون من وسائل القضاء على محمد وصحبه ، حينما سمعوا نبأ « البيعة » المدنية ، التى زعزعت ثقتهم بأنفسهم . فقال أحدهم . أخرجوه من أرضكم تستريحوا منه ، فرفضوا هذا الرأى وقالوا : إنه إذا خرج اجتمعت حوله الجموع لما يرونه من حلاوة منطقه وعذوبة لفظه ، وقال آخر : نوثقه ونحبسه حتى يدركه ما أدرك الشعراء قبله من الموت . فرفضوا هذا أيضا وقالوا : « إنا إن حبسناه لا يلبث الخبر أن يبلغ أنصاره ، ونحن أدرى الناس بمن دخلوا فى دينه ، يفضلونه على الآباء والأبناء ، فإذا سمعوا ذلك ، جاءوا لتخليصه ؛ وربما جر هذا علينا من الحرب ما نحن فى غنى عنه . فقال ثالث : الرأى ؛ أن نقتله ، ونقتله قتلة لا يستطيع بنو أبيه أن يأخذوا بثأره ، خذوا من كل قبيلة شابا ، ويرقبه الجميع أمام داره ، حتى إذا خرج منها ، ضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قريش كلها ،

ويذهب محمد بالدية . فوقع هذا الرأى عندهم موقع القبول وهو آخر ما فى كنانتهم من سهام ، فأعدوا له وسائل التنفيذ الممكنة ، ولكن الله الذى تكفل بحفظ رسوله ورعايته ، وأنزل عليه محكم كتابه :

« والله يعصمك من الناس ، إن الله لا يهدى القوم الكافرين » .

أفسد عليهم تدبيرهم ، وأحبط أعمالهم : أصمهم وأعمى أبصارهم ، وأخرج رسوله محفوفا بالعزة والكرامة :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » الأنفال

وبهذه الهجرة ، ترك النبى صلى الله عليه وسلم قلوب قريش تغلى كالمراجل فوق النار المتقدة ، تتبخر منها أفانين الحنق على سهام طاشت ، ومكر ردت نصاله فى نحورهم ، ومكايد ذهبت أدراج الرياح .

وبهذه الهجرة أعز الله أولياءه وقوى شوكتهم ، ونفخ فيهم من روحه ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا .

بهذه الهجرة أواهم الله إلى قوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، أواهم إلى قوم ، هم أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ؛ تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا . أواهم إلى قوم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . !

أى نصر هذا الذى أيد الله به أولياءه ؟ ذلكم نصر الله الذى وعد ، نصر الله الذى يمنحه المخلصين من عباده ، نصر الله الذى يهدد به من يخذل دينه ، ويسلم شرعه لأرباب الهوى والفجور : إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه ، لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ..

وأى خذلان هذا الذى حل بالأعداء فأفقدهم رشدهم ؟ ذلك خذلان الله يقرع به قلوب : الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » .

إذن لم تكن الهجرة فرارا من الأذى ، ولا هربا من التنكيل ، ولا التماسا للرزق ، ولا خورا فى العزيمة ، ولا خوفا من الموت فى سبيل الله ، فقد كانوا يستعذبون الموت فى سبيل الخلود ، ومن استعذب الموت فقد استعذب كل شيء دونه .. إنما هو الايمان بالله ، يملأ نفس صاحبه عزة وكرامة ، هو الإيمان يأبى على صاحبه أن يخلد إلى السكون أو يرضى بالخنوع تحت سلطان القهر ، الذى يمنع المرء من الحرية فى تصرفه وإقامة دينه ، والاتصال بإخوانه الذين يجب أن يتساندوا معهم . وليكونوا جميعا وحدة قوية ، تحمى البيضة ، وتبث الدعوة ، وتنشر العدل ، وتحقق المساواة ، وتدعو إلى الخير والسعادة .

وهكذا تمت الهجرة ، واستقر محمد وأصحابه المهاجرون معه فى المدينة ، وآخى بين المهاجرين والأنصار حتى جرت بينهم أنهار السخاء والإيثار . ثم رتب شأنه . ورسم خططه : خطة الدعوة ، وخطة التبشير والإنذار ، وخطة التطهير لبيت الله من عبادة غير الله ، وخطة إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والوان الذين قعد بهم الضعف فى مكة ، تصب عليهم ألوان العذاب ولا يملكون سوى أن يقولوا :

« ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

هكذا تمت الهجرة وكانت مبدأ الوجود الدولى للمسلمين ، الذين لم يكونوا قبلها إلا أفرادا مضطهدين معذبين مبعثرين ، وصار لهم بها وحدة ، لها شعارها الخاص ، ونظامها الخاص ، وهدفها الخاص ، وقيادتها الخاصة ، صار لهم بها جوار غير الجوار الأول ، عقدوا معه معاهدة الأمن وعدم الاعتداء ، وبهذا وذاك ، كملت لهم عناصر الوجود الدولى فيما بينهم بعضهم مع بعض بتشريعاتهم الداخلية ، وفيما بينهم وبين غيرهم بتشريعاتهم الخارجية ومن هنا كانت الهجرة من بين الأحداث كلها جديرة أن تتجه اليها الأنظار ، ويتخذ منها مبدأ للتاريخ الاسلامى ، ليكون للمسلمين من ذكراها فى كل عام ، ومن التوقيت بها فى مكاتباتهم وعقودهم وأحداثهم الخاصة والعامة ، درس متصل الحلقات ، يساير حياتهم كلها ، ويذكرهم فى جميع أوقاتهم وتصرفاتهم بتلك الجهود

التى اكتنفت الهجرة قبلا وبعدا ، فتوحى إليهم دائما بأسباب العزة ، وتوقظ شعورهم وتنبه وعيهم إلى أنها مبدأ الوجود الدولى للمسلمين الأولين ، وأن العظمة التى صارت اليهم ، لم يمنحوها منحا ، ولم تأت اليهم عفوا ، وإنما منحوها بجهود سابقة عليها ولاحقة بها ، وأنه لا بد فى الاحتفاظ بهذه العظمة التى ولدتها تلك الجهود من الاحتفاظ بتلك الجهود ، وبتنشئة الأمة عليها ، وبغرس بذورها فى أبنائها حتى تظل قوية الأركان ، شامخة البنيان ، ترد عنها كيد الكائدين وطمع الطامعين . وهكذا فيما أعتقد ، أراد الأولون حينما اتخذوا الهجرة للتاريخ أساسا . وإنى لأرجو من الله العلى القدير الذى هيأ للمسلمين الأولين وسائل التضحية فى سبيل المجد والعظمة ، أن يجعل من نهضة المسلمين الحاضرة ما يرد الأمر إلى نصابه ، ويرجع بهم إلى تاريخهم الذى يذكرون به جهود أسلافهم ، وبه يستأنفون أمثال تلك الجهود . . حتى يعود اليهم ما كان لأسلافهم من مجد وعظمة .

جدير بالمسلمين أن يتفهموا حادث الهجرة ، ويعرفوا منه : أن المبادىء متى تركزت وآمنت بها القلوب ، وامتلأت بها النفوس ، كانت عند أصحابها أعز من نفوسهم وأموالهم ، ومن كل ما يملكون فى هذه الحياة . ومصداق ذلك قوله تعالى :

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب

إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » التوبة

وفى هذا المعنى يقول صاحب الهجرة عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » .

ويعرفوا منه . أن صاحب العقيدة العالمية ، والمبادىء الإنسانية العامة ، كالتوحيد والسلم ، وتخفيف الويلات عن البشرية . لا تقف بجهوده فى سبيل عقيدته أو مبدئه عند أناس معينين ، أو فى أماكن مخصوصة ، وإنما يسمو بعقيدته ومبدئه عن التقيد بالجنسيات والأقاليم . والعالم كله والحياة كلها ، والناس جميعا ، ميدان لعمله ، وموطن يتخير منه الخصب المثمر . وإذا ما نبا به مكان ، ولم تسعفه تربته بالإنبات ، تحول إلى غيره حيث يجد بغيته ، ويجنى ثمرته . وهكذا فعل محمد وأصحابه .

ويعرفوا منه ، أن أرباب العقيدة الواحدة ، أو المبدأ الواحد ، يجب أن يكونوا كتلة واحدة متماسكة ، ويدا واحدة عاملة ، تربط العقيدة بين قلوبهم . والأخوة بين عواطفهم ، لا أثرة ولا طبقات ، ولا سيد ولا مسود . وقد آخى صاحب الهجرة بين المهاجرين والأنصار كما آخى بين الأنصار بعضهم وبعض ، وصار المؤمنون جميعا بهذا التآخى يدا واحدة على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا : واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم

منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »   آل عمران

ويعرفوا منه . أن التخلف عن الهجرة ، وعن العمل فى سبيل العزة ، والرضا بالإقامة فى جو الذل والهوان ، لا يتفق وكرامة الإيمان وعزة المؤمنين : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ، ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفورا . »

ويعرفوا منه . أن السبب فى نجاح آبائهم ، وقوة أسلافهم ، يرجع فى حقيقته إلى أن قلوبهم . قد هاجرت من الرذيلة إلى الفضيلة ، ومن الباطل إلى الحق . ومن معانى الضعف إلى معانى القوة ، وأنهم آمنوا بفكرتهم ، وصدقوا فى دعوتهم . وأعدوا للجهاد عدته ، وأن هجرة أبدانهم إنما كانت تلبية لهذه الهجرة القلبية . وإذا كانت الهجرة البدنية لا سبيل إليها للمسلمين الآن ، فإن أبواب الهجرة القلبية مفتحة على مصارعها ، وما أحوج المسلمين اليوم إليها . ما أحوجهم إلى الاخلاص فى الدعوة ، والجد فى العمل ، والصدق فى القول ، والصبر على المكاره . ما أحوجهم وأخص أهل القيادة والفكر ، إلى أن يكونوا كما كان أسلافهم الأمجاد مثلا حية شريفة للناس ، فى السيرة والدعوة والإخلاص والعمل.

التجربة الأولى

ينتقل النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من مكة إلى المدينة ، ولا يكاد يستقر بهم المقام ويؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ويؤلف بين قلوب الأوس والخزرج ، حتى تترامى إليه أنباء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، كما تترامى إليه أنباء الكيد الذى بيته المشركون له فى مكة ، فلم يكن بد من أن يجعل الله لهذا الباطل حدا تتوارى فيه جثته ، لا بد أن يشعر هؤلاء الطغاة الذين يستذلون الضعفاء ويكيدون لأولياء الله بما لا يشعرون إلا به من القوة والبطش والمنعة . ومن هنا تهيأت للمسلمين أسباب غزوة بدر ، وتقدموا إلى المشركين وجها لوجه غير هيابين ولا وجلين ، فنصر الله ضعفهم على قوة أعدائهم فهزموهم شر هزيمة ، وأعملوا السيوف فى رءوسهم وعظامهم ، حتى دكوا صروحهم ، وقضوا على شامخ بنيانهم ، وكان ذلك فى رمضان من السنة الثانية من الهجرة .

ونحن إذا ذكرنا برمضان ويومه السابع عشر غزوة بدر ، فلا نذكر مجرد معركة حربية قامت بين فريقين ، فانتصر أحدهما على الآخر ، وإنما نذكر مدى ما تفعله الروح المعنوية للمجاهدين فى الحصول على النصر والظفر ، نذكر المدد الإلهى الذى تحتفظ به سنة الله لعباده المؤمنين المخلصين ، وهو مدد لا يخص به قوما دون قوم . ولا مؤمنى عصر دون

عصر ، ولا مؤمنى مكان دون مكان ، وإنما هو فيض الله وعطاؤه لمن يخلص للحق ويؤمن به ، ويعمل على نشره ، وإشاعة نوره بين الناس .

وبهذا كان يوم بدر ، يوما من أيام الله الباقية آثارها فى النفوس ، يوما فرق بين الحق والباطل ، وأملى على الطغاة ، أن أساس النصر والغلبة ليس كثرة العدد ، ولا قوة العُدد ، وإنما أساسه الصبر والإخلاص والتقوى .

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

آل عمران

« واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير » الأنفال

وبغزوة بدر تركز سلطان المسلمين ، ووجودهم وبناء دولتهم ، وكان من بركتها أن نزلت عليهم سورة الأنفال التى سماها ابن عباس « سورة بدر » فأرشدتهم إلى ما يجب أن يتحلوا به من عقائد الإيمان وأخلاقه وأعماله ، كما ذكرتهم بالقوة المعنوية التى لا بد منها فى الاحتفاظ بالكيان الحربى الظافر . وذكرتهم بالقوة المادية ضمانا للسلم وإرهابا للأعداء . ووضعت لهم المبادئ الكفيلة بدوام النصر وعزة السلطان .

وبغزوة بدر أصبح للمسلمين كيان أدبى ، إذ استطاعت الحفنة المهاجرة من مكة ، والحفنة المستضيفة من يثرب ، استطاعت هاتان الحفنتان

أن تحرزا نصرا بلغ ذكره الآفاق ، وأن تكتسبا لدولة المسلمين احتراما وتقديراً معترفا بهما .

. . .

وإذا كان رمضان يذكرنا ببدء هداية التشريع الألهى بنزول القرآن ، فهو بغزوة بدر . يذكرنا بالقوة التى يتركز بها السلطان وتستقر بها الكلمة وتحترم بها الدولة .

وإذا كان رمضان ، يذكرنا بهداية التشريع بنزول القرآن ، وبسلطان القوة بغزوة بدر ، فهو يذكرنا أيضا بذلك الحادث العظيم الذى عاد به أنصار الله وأولياؤه إلى أوطانهم ، بعد أن أخرجوا منها بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ذلك الحادث ، هو حادث الفتح الأعظم الذى يذكرنا به يومه العشرون ، والذى طهر به بيت الله من الأصنام والأوثان ، والذى امتد به سلطان الله فى أرض الله ، والذى أتم الله به نعمته على عباده المؤمنين . وقد امتن الله به عليهم وأشعرهم به قبل وقوعه بسورة الفتح :

وفيها يقول :

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا »

وفيها يقول :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله، آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيدا » .

كانت غزوة بدر تجربة قاسية اجتاز الاسلام امتحانها بنجاح ، والذى لا ريب فيه ، أن هذه التجربة قد صقلت النفوس وأكدت الثقة فى الله القوى الذى بيده ملكوت كل شيء ، فاستطاع المسلمون بعدها أن يخوضوا غمار كثير من الحروب بايمان واعتزاز ، حتى السنة الثامنة من الهجرة حين قصدوا مكة ليفتحوها ، فلم يجدوا مقاومة ، بل وجدوا استسلاما وتسليما ، وتم فتح مكة العاتية . المتمردة ، وثبت الكيان الدولى للمسلمين وللإسلام ، وللدولة المسلمة .

مبادىء .. وقيم

لا تعرف الأمم الناهضة فى تاريخها يوما أعز ولا أعظم من يومها الأول ، الذى وضع فيه أساس بنائها ، ويومها الثانى ، الذى تم فيه صرح البناء ، وما أجدر اليومين بأن يكونا عند الأمم الناهضة عيدين يتكرران كل عام ، ترسم فيهما ذكرياتهما ، وآثارهما ، وإيحاؤهما على صفحات القلوب .

ومن هنا ، جعل الاسلام ، يومى الفطر والأضحى ، عيدين للمسلمين . إذ كان يوم الفطر وهو أول يوم فى شوال مذكرا بنعمة الأساس لبناء الدولة ، وهى نعمة التشريع الالهى بنزول القرآن الكريم . وكان يوم الأضحى وهو العاشر من ذى الحجة ، مذكرا بنعمة الإكمال لهذا البناء ، وهى نعمة الفتح وإتمام النصر .

وفى هذين العيدين تتمثل كثير من القيم الأخلاقية ، والمبادىء الإنسانية . ففى عيد الفطر مثلا تتفجر العواطف الإنسانية نحو الفقير المعدم ، والمحروم البائس ، فيجد كلاهما فى زكاة الفطر ما يذهب بآلامه ، ويجفف دموعه .

وفى عيد الأضحى ، يغرس فى النفوس مبدأ الفدائية ، ليحرص كل مسلم على أن يبذل فى سبيل دعوة الله أغلى وأثمن ما يملك .

وفى عيد الأضحى مثلا يذكر المسلمون خطبة حج الوداع ، هذه الخطبة الجامعة الشاملة ، التى رسمت خطوطا بارزة لكثير من المبادىء الديموقراطية السليمة .

إن هذين العيدين ليسا فرحة للبس الجديد واللهو والعبث ، ولكنهما شعاران للكثير من المبادىء الانسانية ، والقيم الأخلاقية ، التى يجب أن يتحلى بها المسلمون جميعا ، ليحققوا قول الله فيهم :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس . . . .

إذا كان يوم الفطر يذكرنا بنعمة الأساس ، فإن له مع ذلك اعتبارات أخرى تلازمه باعتبار وضعه الزمنى فى كل عام . فهو أول يوم بعد رمضان ، تعود فيه إلى المؤمن حريته الشخصية فى مأكله ومشربه بعد أن سلمها لمولاه ، متقربا بها اليه . ولولا أنه يؤمن بأن سلب الحرية بأمر الله ، وعودتها بأمر الله ، من الكمال الانسانى ، لما رضيت طبيعته بسلب حريته فى مأكله ومشربه وما يشتهى شهرا كاملا . وهذا مما يشهد بأن الحرية مطلب عزيز لا يضحى به إلا فى سبيل مجد هو أعز منه . وأن ذلك المجد ، هو فقط ، طاعة الله ورضوانه ومغفرته .

وهو أول يوم أيضا يشعر فيه المؤمن بكمال فرحتين عظيمتين ، لهما الأثر القوى فى حياته وفى سلوكه ، فرحة القيام بواجب الطاعة والامتثال ، وفرحة الثقة بحسن الجزاء ، ولعل هاتين الفرحتين ، يشير إليهما قوله عليه الصلاة والسلام : للصائم فرحتان : فرحة عند إفطاره ، وفرحة عند لقاء ربه . . »

والقيام بالواجب ، والإيمان بحسن الجزاء ، عاملان قويان فى سعادة الفرد والمجتمع ، ففى القيام بالواجب طمأنينة النفس وراحة الضمير ، وانشراح الصدر ، وقوة العزيمة ، وإدراك للسمو الروحى الذى يحمل الخير كله فى بذل ما وجب - لا لشىء سوى أنه وجب .

ولو تنبه الناس لما فى القيام بالواجب من هذه المعانى الفاضلة ، وعرفوا واجباتهم وبادروا بأدائها فى أوقاتها ، وهى كثيرة منثورة فى كل وقت من كل يوم - لكان لهم فى كل وقت من كل يوم عيد يفرحون فيه للقيام بالواجب .

أما الإيمان بحسن الجزاء ، فهو العامل النفسى الوحيد الذى يدفع الإنسان إلى المغامرة والتضحية والجهاد فى سبيل المجد . وإلى البذل بكل ما يستطيع غير متردد ولا متشكك ، فى أن الجزاء الأوفى سيناله على ما قدم من عمل ، أو بذل من نفس أو نفيس .

وإذا كنا نجد فى يوم الفطر التذكير ببناء الاسلام ، تشريعا ، ونجد فيه الإيمان بحسن الجزاء للمحسنين - فإنا نجد له اعتبارا وراء ذلك كله - نجده اليوم الذى يعود فيه الصائم المؤمن من رحلته الروحية التى سلك سبيلها بصوم شهر رمضان ، واكتسب فيها ما اكتسب من خلق المراقبة والصبر . وفى الوقت نفسه نجده اليوم الذى تبدأ به رحلة أخرى ينضم فيها البدن إلى الروح ، ويستعين المؤمن على مشاقها

بما اكتسبه فى الرحلة الأولى من أخلاق الصبر والعزم والإيمان . وتلك هى رحلة الحج ، وإن يوما تنتهى به رحلة روحية هى رحلة الصوم ، وتبدأ به رحلة بدنية روحية هى رحلة الحج ، وزيارة الله فى بيته الحرام ، لجدير أن يكون عيداً .. وأن يكون عيداً فوق الأعياد .

لهذه المعانى التى تدركها فى أول يوم من شوال جعله الله عيداً للمسلمين ، فيه يتبادلون التهانى والتزاور . وفيه يتعاطفون ويتراحمون . وفيه يتجملون ويتزينون ، وفيه يتمتعون بما رزق الله ، وفيه يشدون فيما بينهم عرى المحبة والإخاء .

ثم لم يقف بهم فى معنى العيد ومظاهره عند هذا الجانب المادى ، بل جعل لهم فيه مظهراً روحيا ، يتجلى فى اجتماعهم العام الذى طلب منهم أن يفتتحوا به يومهم فى صلاة علنية جامعة ، تعرف باسم صلاة العيد ، يسبحون فيها ويكبرون ، ويتجلى أيضا فيما طلب منهم من وسائل العطف على الفقراء والمساكين وأرباب الحاجات . ومن هنا يتصل المسلم فى عيده بربه عن طريق العبادة والشكر ، وبإخوانه عن طريق المحبة والإخاء . وبذلك لم يكن فى فرح المسلمين فى عيدهم ، فرح لهو ولعب تقتحم فيه الحرمات ، وتنتهك فيه الأعراض ، وتسلب فيه العقول ، وإنما هو فرح زينة وعبادة ، يجمع بين حظى الجسم والروح ، ويبقى على المعانى الفاضلة التى اكتسبها الإنسان فى شهر رمضان ، ويعده إلى أسمى ما ينبغى أن تتجه إليه الإنسانية الفاضلة من درجات العزة والمجد وسعادتى الدنيا والآخرة .

والمعنى الذى يتضمنه هذا اليوم ويجب أن يكون له اهتمامه ، هو ذلك المعنى الانسانى النبيل ، الذى يتجلى فى زكاة الفطر ، فالمسلمون جميعا يجب أن يبتهجوا بالعيد ، ولكن أنَّى للسائل والمحروم ، والفقير البائس المعدم ، أنى لهؤلاء أن تنالهم البهجة بالعيد ، والفاقة تقض مضاجعهم ، والبؤس يستدر دمعاتهم ، والحرمان يكاد يعض نبضات قلوبهم ، إذا لم يكن هناك معنى إنسانى نبيل يحمل البؤس والفاقة والحرمان فى ذلك اليوم على الفرار .. والرحيل من ساحتهم ؟

لذلك حرص رسول الله - صلوات الله عليه - على فرض زكاة الفطر فى هذا اليوم ، على الذين يملكون من النصاب مايتعدى قوت اليوم ، حتى لا يجد الانسان المسلم مفراً من بذلها ، وحتى لا تدع بعد ذلك جائعا يتلوى من الجوع . أو بائساً يترنح من البؤس ، أو محروما يتلظى بلهيب الحرمان .

إذا كان يوم الفطر وهو أول يوم فى شوال ، يذكر به المسلمون توفيقهم للقيام بواجب الصوم . الذى فرضه الله عليهم فى رمضان ، شكرا على النعمة العظمى ، وهى إنزال القرآن ، ويوحى إليهم بما أسلفنا من الاعتبارات الأخرى . وقد جعله الله بها عيدا للمسلمين ، يتبادلون فيه التهانى ، فإن يوم الأضحى ، وهو اليوم الذى سماه الله فى كتابه ، يوم الحج الأكبر . يذكرهم بنعمتى الإكمال والإتمام الدين تشريعا ، وتقريرا ، وللدولة بناء وتشييدا ، وعزا وسلطانا ، وبهذا جعله الله لهم

عيدا ، وعيدا أكبر ، فيه يتبادلون التهانى ويتعاطفون ويتراحمون . وفيه يقدمون لمولاهم رب النعمة فى الأولى والآخرة دماء القرابين فى ثوب من الاخلاص النقى الطاهر ، رمزا لاستعدادهم على الدوام للتضحية والفداء ، وبذل الدماء فى سبيل المحافظة على دين الله ، وعلى إقرار كلمة الله . وإن لعيد الأضحى ، وهو آخر أيام الحج الذى يفد المسلمون مكة لأدائه من كل فج ، ذكريات تثير فى النفوس من آيات المجد والعظمة ، ما يفتح أمام المسلمين - لو تفهموها حق تفهمها - سبل الحياة القوية .

فهو يذكرهم بدعوة أبيهم ابراهيم: « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . . . فتغرس فى نفوسهم هـذه الذكرى أن أنبياء الله ورسله مهما تباعدت عصورهم ، واختلفت أممهم ، إنما يسعون لغاية واحدة، هى إسعاد البشر عامة ، وهداية الناس أجمعين . وأن البشرية بالنسبة إليهم جميعا كالأسرة الواحدة ، يهتم جدها الأعلى بتتابع أبنائه المصلحين فيها . يتلون عليهم آيات الله ويزكونهم ويعلمونهم الكتاب والحكمة .

وهو يذكرهم بموطن الوحى ، ومهبط الهداية الإلهية على رسولهم فيرون كيف انبعث نورها من جبال مكة ، ولم يلبث أن طبق الآفاق ، وعم المشرق والمغرب ، وكيف صارت مكة بجبالها وهضابها ورمالها ، للإنسانية خير مرشد ، وأعظم منقذ : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . ابراهيم

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أم القرى ومن حولها » . الأنعام

وهو يذكرهم بذلك التبليغ الإلهى الذى قام به على رضى الله عنه نائبا عن النبى صلى الله عليه وسلم فى نهاية السنة التاسعة - وأبو بكر رضى الله عنه على رأس حجاج بيت الله الحرام - يبلغه العرب كافة على اختلاف مللهم ، وبهذا البلاغ ، تعلن كلمة الاسلام النهائية فى علاقة المشركين بمكة، وزيارة البيت الحرام ، يقف على رضى الله عنه . والناس يؤدون مناسك الحج بمنى ، فيتلو عليهم جميعا أوائل سورة التوبة وفيها :

« براءة من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله » .

وفيها: « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ».

وفيها : « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . . »

ثم يحمل على رضى الله عنه هذا التبليغ فى كلمات أربع يعلنها فى موقفه على الناس جميعا :

لا يدخل الجنة كافر .

لا يحج بعد العام مشرك .

لا يطوف بالبيت عريان .

« من كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته » .

وبهذا الإعلان تستقر كلمة الله ، ويرحل الشرك من إقليم بيت الله ، وما كان له أن يبقى فى مهد الإيمان . فإنه بما يحمل فى طياته من شرور وآثام ، ثورة جامحة على الإيمان وما يحمل من خير وصلاح . ولا سبيل لبقاء منبع الشر العام إزاء منبع الخير العام ، وإلا اضطرب الخير والتوت على أهله طرقه . وبهذا صارت جزيرة العرب لا تعرف إلا ربا واحدا ، ودينا واحدا ، شعارها :

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. ولله الحمد .

وهو يذكرهم ، بتلك الخطبة الجامعة ، خطبة الوداع التى توج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم بلاغه للناس ، وأبرز فيها أهم المبادىء التى جاء بها الإسلام لخير البشر أجمعين . وفيها يقول :

أيها الناس . اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها . .

وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس ابن عبد المطلب . .

وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث . .

إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك بما تحقرون من أعمالكم . .

إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حق ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . ألا هل بلغت . . اللهم اشهد . .

إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت . . اللهم اشهد . فلا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، وإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى : كتاب الله . ألا هل بلغت . . اللهم اشهد . .

أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . . »

نذكر كل هذا بعيد الأضحى . ونذكر به أن الله أنزل على رسوله قوله :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » .

فيكون ذلك أعظم بشرى للمسلمين يكمل بها عدلهم ، ويتم شرعهم وتستقر دولتهم .

ونذكر عيدى الفطر والأضحى معا ، فنذكر هذه المبادىء والقيم ، التى تضفى على وجود المسلمين مظاهر السمو والعزة ، والرفعة والإباء .

وبعـــــد . . .

فهذه هى الأحداث الإسلامية التى كانت عناصر أساسية فى البناء الإسلامى ، الذى أثبت للمسلمين وجوداً دولياً معترفا به ، استعرضناها فى هذا البحث الموجز ، للإسهام فى سلسلة الثقافة الإسلامية التى نرجو لها النجاح المطرد . .

إنها أحداث ضخام لها فى تاريخ الإســـلام أبرز صفحاته ، ولا تزال فى نفس كل مسلم الذكريات الإسلامية الأولى ، يطالع فيها أسباب العزة والمجد ، ويتلقى عنها ، دروس الحياة القوية الناهضة ، ويعرف بهـــا أن سنة الله فى نهضة الأمم واستقرار سلطانها ، ترجع أولا وقبل كل شىء إلى الإيمان المالك للقلوب ، وإلى الصبر الذى يذلل الصعاب . وإلى الإخلاص الذى يربط الانسان بربه ، وتهون به لديه وسائل التضحية .

بها نعرف أن أسلافنا ما عرفتهم العزة عفوا ، ولا هبطت عليهم منحا ، وإنما وصلوا إليها بالجد والعمل والمثابرة . والتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

فعلينا أن نفقهها واحدة فواحدة ، وأن نتعرف فيها مواطن العظة والاعتبار ، ونتخذ منها مصابيح الهداية والارشاد ، فتسمو حياتنا ، وتنظر إلينا أرواح الأولين وهى فى عليين ، نظرة الفرح والابتهاج بمحافظتنا على مقدساتهم وسيرنا فى سبيلهم ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين .

وفق الله المسلمين وهداهم إلى صراطه المستقيم .

الكتب التالية فى هذه السلسلة

* الدكتور محمد يوسف موسى	الاسلام .. ومشكلاتنا الحاضرة
* الدكتور محمد البهى	الاسلام .. والفلسفات المعاصرة
* الدكتور محمود حب الله	نظرة الاسلام للإنسان
* المرحوم الدكتور عبدالله دراز	المسئولية فى الاسلام
* الأستاذ الشيخ مصطفى الزرقا	الفقه الاسلامى فى ثوب جديد
* الدكتور محمد عبدالله العربى	الاسلام .. وأصول الاقتصاد
* الدكتور على حسن عبدالقادر	الاسلام .. وأصول الحضارة
* الدكتور عبدالحليم محمود	أوروبا .. والاسلام
* الأستاذ أحمد مظهر العظمة	الاسلام .. ونهضة الأندلس
* الدكتور سليمان دنيا	الدين .. والعقل
* الدكتور مصطفى الشكعة	إسلام .. بلا مذاهب
* الأستاذ مالك بن نبى	فكرة كومنولث إسلامى
* الكولونيل عبدالله التل	الفن العسكرى فى الاسلام
* الأستاذ محمد فتحى عثمان	الدين .. للواقع
* الأستاذ محمد عبدالله السمان	سعيد بن جبير

ظهر من هذه السلسلة :

الوحدة الاسلامية	لفضيلة الأستاذ محمد أبوزهرة
الديمقراطية الاسلامية	الدكتور عثمان خليل